الفصل الأول

لَيَبْلُغَنَّ الكِتابُ أجَلَه ..

مكة . . .

البلد الحرام الذى تتوسطه الكعبة ، موطن القدَاسات منذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . . تمضى الحياة فيها لافحةً مثل مُناخها . . راسخة مثل جبالها . . حالمةً مثل سمائها .

وأهلُها عاكفون على عقائدَ وتقاليدَ تسمو أحياناً حتى تبلغ أوْجاً بعيداً . . وتُسِفُّ أحياناً حتى تبعث على السخرية والرثاء . . ! !

وحول الكعبة أصنام مبْثوثة ، تطفلت فى غفلة الزمن على هذا الحرم الأقدس الذى ظلّ قُروناً ولَبِث أحقاباً يمثل راية الله المرفوعة فى الأرض ، تنادى أهل الحنيفية والتوحيد . .

هى كذلك دهراً طويلا حتى جُلِبَتْ إليها الأصنام ذات يوم . ، وازدحمت حولها مع الأيام . حيث صارت مَهْوَى أفئدة قريش وما حولها . يعبدها الناس ويتّقونها ، ويتملّقونها ؛ لتُقَرِّبهم إلى الله زُلْفَى . . ! ! !

فهنا الّلات ، والْعُزَّى ، وَمَناة . .

وهناك ، أُساف ، ونائلة ، وهُبَل . .

وعشرات سواهُن من الأوثان والأصنام . .

وإن مواكب العابدين لتَسعىَ ليل نهار إلى تلك الآلهة المجلوبة ، والمنحوتة . . الآلهة التى لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تغنى عن أحد شيئاً . . ! !

لكل قبيلة إلاَهُها وصَنَمُها .

وكل طفل يُولد ، لا يلبث حين يدرك الحَبْوَ ، حتى يُقادَ إلى ربه ليعرفه ، وليسعى إليه فيما بعد ويَبثه أمَله ونَجْواه . . ! !

وتاهت العقول فى زحمة الخُرافة . . ! !

وكان أمراً عجباً . . ! !

* فذَوُوا الأحلام الرشيدة الذين أنشأوا « حِلْف الفضول » حيث يقفون جبهة واحدة مع المظلوم ضد الظالم . . ! !

* والذين استنُّوا للسلام منهجاً فَذّاً ، وابتكروا له سُنَّة باهرة ، فأسَّسوا نظام « الأشهر الحرُم » تَقَرُّ السيوف خلالها فى أغمادها ، وتنام الأحقاد والتاراتُ نوماً عميقاً ، ويَلقى الرجل فيها قاتل أبيه أو أخيه وقد أمْكَنته الظروف منه ، فلا يَحصِبه بحصاة ، ولا يقربُه بسوء . . ! !

* والذين وضعوا للسؤدد الاجتماعى نظاماً رفيعاً ، فلا يُسمح لأحد أن يسود فى قومه إلا إذا تفوَّق فى هذه الخصال الست :

السخاء . . النجدة . . الشجاعة . . الحلم . . التواضع . . البيان . .

وكانوا يقولون : « موت ألف من العِلْية ، خير من ارتقاء واحد من السِّفْلة » . . ! ! !

والذين كان لهم سوق عُكاظ ، يُيَمِّمون وجوههم شَطره من كل مكان ليلتقوا فيه بأشهى ثمار النبوغ الإنسانى ممثلاً فى شعر شعرائهم ، وبيان خطبائهم . . ! !

- هؤلاء المُحَلِّقون عالياً ، عالياً ، تَرينُ على أفئدتهم هذه الغفلة العجيبة ، فَيخِرُّون ساجدين أمام أصنام نَحتُوها من حجارة أو عجنوها من صَلصال . . ! !

مُفَارقات مُحيِّرة . .

ولكن ليسوا فى هذا وحدهم . .

فى « أثينا » . . وفى أزهى عصورها . . عصر الفلسفة والفلاسفة . . وعصر سقراط وباركليز ، كان أهل أثينا يعبدون آلهة الأولمب . . أصناماً كأصنام مكَّة ، بل إن أهل مكة كانوا ينظرون إلى أصنامهم نظرة إكبار وتنزيه .

أما أهل أثينا فكانوا يعبدون آلهة خلَعوا على بعضها أسوأ الصفات . . ! ! !

* * *

ومع عبادة الأصنام التى سادت مكة ، كان هناك صنوف أخرى من العبادة تزخَر بها أنحاء الجزيرة العربية .

فكان هناك من يعبدون الشمس ، مما جعل الرسول عليه السلام حين بُعث وفُرضت عليه الصلاة ، ينهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب ، حتى لا يكون ذلك مُحاكاة - ولو غير مقصودة - للذين يعبدونها ، ويخرون لها ساجدين لحظة الشروق ولحظة الغروب . .

وكان ثَمَّةَ من يعبدون الملائكة . . . هؤلاء الذين ناقشهم القرآن فيما بعد فقال :

« وَيَوْم نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ ، قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهم » . .

وكان هناك من يعبدون الجن . . هؤلاء الذين سينعتهم القرآن بقوله « بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » . .

وكان منهم عَبَدَةُ الكواكب . . الذين سيؤنبهم القرآن بقوله : « وَأَنَّه هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى » . .

وكان هناك الدَّهريون الذين روى القرآن فيما بعد قولهم :

« ماهِيَ إِلَّا حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ ونَحيا ، وما يُهلِكُنا إلا الدَّهْرُ » . .

ملائكة . . وجن . . وكواكب . . وأصنام . . ؟ ؟

أين مِلَّة إبراهيم وَسْط هذا الزحام . . ؟ ؟

إنه منذ القرون الأولى ، هاجَر إلى هذا البلد المنيع الآمن إنسان مُتَبَتِّل ، غادرَ قومه الكِلْدانيين ، وترك وطنه وأهله فى بابل ، وجاء مكة حاملا كلمة الله . .

وهنا فى مكة حَطَّ رِحالَه ، ورفع رايته ، وهتف بالتوحيد وقال قولته الباقية :

« وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذى فَطَرَ السموات والأرضَ ، حَنِيفاً وما أنا من المشركين » . .

وتَرَكَها باقيةً فى عَقِبه ، مُدَوِّيةً فى أفق الجزيرة الواسعة فماذا دهَى الناس . . ؟

وهل ضاعت الحنيفية المؤمنة المُوحِّدة ، وسط الوثنية الطارئة ، والشِّرك الزاحف . . ؟ !

وهل أقْحَل هذا البلد الأمين ممن يُجدد للناس دينهم الأوَّل . . ممَّن يرفع صوته مُذكراً بالحقيقة الدارسة . . ؟ ؟

كلاَّ . . .

ولقد كان هناك عَبْر السنين والأجيال هُداة يبزغون بين الحين والحين ، يُلَوِّحُون براية إبراهيم ، ويرفعون أصواتهم داحِضين الشرك والزيغ . .

كانوا كثيرين – منهم من نعرف ، ومنهم من لا نعرف . .

منهم من سبق الرسول بمئات السنين ، ومنهم من كان إرهاصاً بين يدى فَجره الطالع القريب . .

مِن الأوَّلين ، سُويد بن عامر المصْطلق – جَهرَ بعقيدة البعث ويوم الجزاء . .

وعامر بن الظَّرِب العدوانى الذى كان يقول لقومه ، – « إنى ما رأيتُ شيئاً قط خلقَ نفسه . . ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً . . ولا جائياً إلا ذاهباً . . ولوكان الذى يميت الناس الداء ، لكان الذى يحييهم الدواء » . . ؟ ! !

وكان منهم ابن تعلب بن درة ، عزَف عن عبادة الأصنام ودعا لله وحده . .

وكان هناك المتلمّس بن أمية الكِنانى . . كان يتوسط قومه عند الكعبة ويَصدع فيهم بقوله :

« أطيعونى تَرْشُدوا . ، لقد اتخذتم آلهة شَتَّى ، وإن الله ربكم وربُّ ما تعبدون » . .

وكان هناك زهير بن أبى سلمى . . يُمسك أوراق الشجيرات التى اهتزت خضراء بعد أن كانت يابسة هامدة ويقول :

« لولا أن يَسبَّنى العرب لآمنتُ أن الذى أحياكِ بعد جفاف ، سيُحيى العظام وهى رَميم » . . وهو القائل :

فـلا تـكتُمُنَّ اللهَ مـا فى نفـوسـكم
لِيخـفى ؛ فمهمـا يُـكْـتَم الله يعـلم

* * *

كان ثَمَّةَ هؤلاء ، ومِثْلهم معهم . .

ولكن لم يكن معهم سوى هذا الحنين إلى الحق ، وهذا الاستشراف الحدْسِيِّ لغايات لم يَبلغوها . .

لم يُرزق أحدهم المنهج الكامل الذى يمكن أن يدعوَ الناس إليه .

وكانوا يَبزغون ، الواحد تلو الآخر عَبْر السنين الطِّوال .

أما الآخرون الذين ظهروا قبيل بعثة الرسول ، فعلى الرغم من أنهم كانوا مثل سَلفهم بغير منهج واضح مفصَّل ، فإن رُؤياهم عن الحقيقة الروحية التى شَغلتهم كانت أكثر بياناً وإسفاراً . .

من هؤلاء : أبو قيس بن أنس – اعتزل قريشاً وأصنامها ، واتخذ له فى بيته مسجداً لا يدخله طامِثٌ ولا جُنُب ، وقال : أَعبدُ رب إبراهيم . . .

وقد عاش حتى بُعث النبى فأسلَم معه . .

وكان هناك ثلاثة تركزت فيهم كل قُوَى الإرهاص بالدين المقبل هم :

قَسّ بن ساعدة الإيادى . .

وزيد بن عمرو بن نُفَيل . .

وَوَرقَة بن نَوفل . .

انعقدت أواصِرُ قُلوبهم على دين إبراهيم ! !

وانْسابتْ من أفئدتهم الضارعة : كلماتُ التوحيد كأنسام الربيع وَسْطَ الهجير الوثنى المتسعِّر . . ! !

كانوا يغنون للنبى القادم . .

كانوا يبشرون بالفجر الطالع . .

كانوا يؤذنون بالدين المقبل الذى سيعيد راية الله إلى مكانها ، ويُسوِّى بالأصنام التراب . . ! !

وإلى هؤلاء جلس أبوبكر طويلا . . .

ولكلِماتهم الرطبة المؤمنة ألْقى سمَعه . . .

وبغنائهم العذْب تَمِل . . .

وعلى حُدَائِهم سار . . .

وفى ضياء حكمتهم الوُثْقى ، وهُداهم المَكين ، أبصرت رُوحُه الطاهرة موكبَ النبوة القادم ، فجلس ينتظر ، ويُعِدّ نفسه لأيام الهُدى واليقين . ! !

ولْنبدأ سيرنا فى صحبة الرجل العظيم من ذلك الحين . .

* * *

هذا الرجل الذى يَشغل بين قومه مكانة مرموقة أهَّله لها كِفايته وحَسَبه ، يحمل فى ذات نفسه شكًّا مُضيئاً . . . شكًّا يُرْبى فى قلبه يوماً فَيوماً العزوفَ عن وثنية قومه وضلالهم .

وإنه لَيمُرُّ بالناس مُتحلِّقين حول أصنامهم ، وجَاثِينَ أمامها فتكْسُو وجهَه سحابةُ أسفٍ مرير ، ويسأل نفسه :

أيمكن أن يكون هذا صَواباً وهُدًى . . ؟ ؟

أناس ينظرون ، ويسمعون ، ويعقلون . . يخرون سُجَّداً أمام حجارة مرصوصة لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تُبين . ؟ ! !

ثم يردد قول زين بن عمرو بن نُفَيل .

أربًّا واحداً . أم ألـــف رب أدِينُ إذا تقسَّمت الأمور؟؟

ويطول التَّسآل ، وتزدحم النفس بالقلق ، ويُبرِّح طـول الانتظار

بالرجل المنيب الأوَّاب ، الذى ينزع إلى معرفة الحق نزوعاً حثيث الخُطى مضطرماً بالرغبة فى التغيير ، والشوقِ إلى كلمة الله التى سيَفْصِل مجيئها فيما اختلف الناس فيه . .

ويَحمله حنينه ، وتقوده أشواقه إلى الذين عندهم عِلمٌ من الكِتاب . . الذين يعيشون فى ذِكريات العقيدة الدارسة التى صَدَح بها هنا ذات يوم بَعيدٍ خليلُ الله إبراهيم . . والذين شَغلهم المصير الإنسانى ، فرفعوا أصواتهم بعقيدة البعث والجزاء .. والذين طهروا قلوبهم تطهيراً من كل ولاء لصَنم وآمنوا برب إبراهيم .

هؤلاء الذين يُقلِّبون وجوههم فى السماء ، وتَخرج الكلمات من أفواههم كالأحلام السعيدة .

أىُّ حديث يَبهر « أبا بكر » ويستهوى لُبَّه خير من حديث هؤلاء . . ؟ !

إن كلماتهم حين يَلْقَفُها سمعه ، لتَرِنُّ فى رُوعه رنين الصدق

وإنه ليَتَتَبعُها كما يتتبَّع الطير الظامئ مَواقع القطر والنَّدَى . .

وهكذا كان يَسْتَرِوحُ دوماً كلما أسعفه وقته بالجلوس إلى هذا النَفَر الصَّالح . .

قَسّ بن ساعدة – زيد بن عمرو – ورَقة بن نوفل . . . لم تكن قريش قد شَطَّت فى عداوة هؤلاء واضطهادهم .

لأنهم – أولاً – كانوا عاكفين على أنفسهم لا يحملون دعوة منظمة ولا ديناً جديداً يُهدد دين قريش وتقاليدها . .

ولأنهم – ثانياً – كانوا فى مُرتفعات أعمارهم ، فقد أوشكت حياة كل منهم على الغروب . .

ولكنَّ إعجاب رجل كأبى بكر – مجرد الإعجاب – بهؤلاء وبأفكارهم ،

يُعرِّضُه لاستنكار قريش لا محالة .

فهو فى ربيع العمر المرتجَى . .

وهو سيد فى قومه الذين أولَوْه عملا من أهم وأجل أعمالهم . . فهو يومئذ « حامل الدِّيات » . .

ويفكر أبو بكر فى هذا . .

يفكر فيما يمكن أن يلحق به من ضُر ، إذا هو خرج عن الصفوف المزدحمة ، وعَلِمَ الناس منه حَفاوته بأفكار قُسٍّ وورقة ، وزيد . .

إن قسًّا ، وورقة ، وزيداً ، قد وضعوا عن كواهلهم كل علاقاتهم بالجماعة ، فلا يَخشَوْن بأساً . ومع هذا فإن قريشاً ، وإن لَمْ تُناصِبْهم العداء ، لتَعمل جاهدة على كَبْح جماحهم ، وكلما ارتفع صوت زيد بن عمرو — وكان أعلى الثلاثة صوتاً — أَغْرَوْا به قريبه الخطَّاب بن نفيل ، فأغلق عليه داره وحال بينه وبين الناس . . ! !

فكيف بأبى بكر ، وعلاقاته بالجماعة مشحوذة ونامية ، وهو فى قومه مِلْءُ كل عين وكل أُذن . . ؟ !

أَتأذَنُ له قريش ولو فى مجرد انطوائه على أحلامه الجديدة ، ورُؤياه الصَّامتة . . ؟ ؟

وقبل أن يطول التردُّد بأبى بكر ، تلتمع خواطره ، فيرى القدوة والمَثَل . . .

محمد بن عبد الله . . ! !

إنه فى ربيع العمر والحياة ، وإنه حَسِيبٌ نَسِيب ، وإنه فى قومه كألمع دُرَّة فى التاج . .

ومع هذا ، فهو — فى هدوء — قد عَزَف عن الأصنام ، وإنه لَيقضى أيامه بعيداً عن معابِثِ الناس وعاداتهم . لا يكاد يلقى أحداً ولا يَدعُ أحداً

يختلس منه وقته ، وأحلامَه ، وسكينةَ نفسه . . يتعبَّد اليوم بالتأمُّل ، حتى تأتيه عن الحق بيِّنة . . .

ويطمئن أبو بكر . .

إنه يستطيع أن يسلك الطريق نفسه دون أن تكون لقريش عليه ثورة أو مَوْجِدَة . .

مثل « محمد » تماماً . .

إنه لا يذكر الأصنام بسوء بعد . . ولكنه أيضاً لا يذكرها بخير . .

لا يعبدها مع العابدين ، ولا يسجد لها مع الساجدين ، ولا يتقرب إليها ، ولا يحِس بوجودها . .

لقد جرَّد من نفسه أمَّةً وحده ، ومضى يبحث عن الحق ، وهذا أعظم غرض تُناط به حياة إنسان .

وسرى فى أوصال نفسه بَرْدُ اليقين .

فأبو بكر ، وإن يكن نَجمعه ومحمداً سِنٌّ واحدة ؛ إلا أنه يرى فيه مثلاً أعلى وقدوة تدعو إلى الثقة . .

ولقد كان لهذا حريصاً على صحبته ، حَفِيًّا بزمالته ، حتى لقد كان كما وصفته أم سلمة : — « خِدْناً لمحمد وصَفِيًّا له » . .

تذكّر أبو بكر حال صديقه وصفيِّه ، فتبددت مَحاذرُه من قريش ، وقرر أن يستجيب لحنينه ، ويمضى مع أشواقه إلى الحق والمعرفة .

ولكن نهجه سيختلف عن نهج صفيِّه « محمد » . .

تماماً ، كما ستختلف النتيجة بالنسبة لكليهما ؛ فبينما يبحث « أبو بكر » عن الحقيقة . إذا « محمد » يَجِدُها . . ! !

إن منهج « محمد » هو التأمل ، والإصغاء إلى الهمس الآتى من داخل الحقيقة ذاتها . .

أما « أبو بكر » فمنهجه التفكُّر ، والإصغاء إلى حِكمة الحُكماء ومنطق العابدين المبصرين . .

وهو طوال عمره مُولَع بحفظ روائع الثقافة العربية من شعر ونثر . .

ومن محفوظاته الثَّرة الغنيَّة يُمِدُّ عقله بأسباب التفكير .

وهكذا بينما يعكُف « محمد » على تأملاته ، ويتلَمس الحق عن طريق حَدْسه وتجربته ورُؤاه . .

إذا أبو بكر يُسْلم قلبه وعقله للحكمة التى يَبرق سَناها فى كلمات هذا النفر الصالح ذوى التجربة السديدة المديدة — قُسّ ، وورقة ، وزيد . .

ولا يترك فرصة تمكنه من التلقى عنهم والإصغاء إليهم إلا اهتبَلَها وفازَ بها . .

وإنه لَيحفظ أقوالهم حفظاً راسخاً ، ويعيش فى رُؤاهم عيشة تُساعدُه عليها فِطرته العُظمى التى تريد أن تعرف الحق وتبلُغه مهما يكن الثمن . . والتى رأت فى هؤلاء بحكم سنهم وبحكم تجربتهم وحياتهم الطاهرة دليلا قويماً إلى الحقيقة المرجوَّة . .

* * *

ذات يوم ، بعد أن تلقى « محمد » رسالة ربه ، وآمن معه « أبو بكر » كان الرسول جالساً بين أصحابه يَستعيد ذكرى أيام شبابه فقال : « لستُ أنسى قسَّ بن ساعدة ، ممتطياً جَملاً أورق ، فى سوق عُكاظ ، وهو يتحدث حديثاً ما أحسبنى أحفظه » . .

فقال أبو بكر : إنى أحفظه يا رسول الله ، كنت حاضراً ذلك اليوم فى سوق عكاظ . . ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول :

« أيها الناس : اسمعوا ، وَعُوا ، وإذا وَعَيْتُم فانتفعوا . .

إن من عاش مات ، ومَن مات فات . . وكل ما هو آتٍ آت . .

« إن فى السماء لخَبراً ، وإن فى الأرض لَعبَراً . .

« مِهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تَمُور ، وبحار لن تغور . .

« ليل داج ، وسماء ذات أبراج . .

« يُقسم قسّ ، إن للهِ لَديناً هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه . .

« مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون . . أرضَوا بالمقام فأقاموا . . ؟ أم تُركوا فناموا . . ؟ !

ثم أنشد أبو بكر شعر قس بن ساعدة .

فى الذاهبين الأولـــين ... من القرون لنا بصـــائر

لمـــــا رأيتُ مواردا ... للموت ليس لهـــا مَصادر

ورأيتُ قومى نحوَهـــا ... يَسعى الأكابر والأصاغر

أيقنتُ أنى لا مَحـــــ ... الةَ حيث صار القومُ صائر

* * *

هكذا كان أبو بكر يحفظ لهذا النفر الصالح ويتلقى عنهم . .

وهكذا كانت روحه عاكفة على ما يبثونه من حكمه . .

ولكم كانت غِبطة نفسه ، وحُبور روحه يتألقان أعظم الألَق حين يُبصر زيد بن عمرو بن نفيل فى جَلالِ مشيبه ، مُسنداً ظهره إلى الكعبة ، منادياً الناس :

– « يا معشر قريش ، والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى . .

« إنى اتبعت مِلَّة إبراهيم وإسماعيل من بعده . . وإنى لأنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل ، ما أرانى أُدركه » . .

ثم تقع عينه على عامر بن ربيعة فيناديه :

– « يا عامر بن ربيعة . .

« إن طالت بك الحياة فأقرئه منى السلام » . .

كان « أبو بكر » يزداد طمأنينة وأَمْناً . كلما رأى « زيد بن عمرو » يشق صفوف الناس المتحلقين حول الكعبة ويرفع عَقيرته فى غير تهيُّب قائلاً :

« لبَّيْكَ حقًّا حقًّا . .

« تَعبُّداً ورِقًّا . .

« عُذْتُ بما عاذَ به إبراهيم . .

وأسلَمتُ وجهى لمن أسلمَتْ ... له الأرض تَحمل صَخراً ثِقالا

دَحاها ، فلما رآهـــا استوَتْ ... على الماء أرسَى عليها الجبالا

وأسلمتُ وجهى لمن أسلَمتْ ... له المُزْنُ تَحمِل عَذْباً زُلالا

ويحدث أبو بكر نفسه :

هذا وربِّ إبراهيم هو الحق . . ولكن كيف ومتى نصبح منه على يقين . . ؟ ؟

ويوماً فيوماً ، كان وجدانه يمتلئ بِرُؤَى التبتُّل والنُسك ويَشغَفُه الحنين إلى دين إبراهيم . .

ولكن أين الطريق . ؟

إن الذين زكّوْا فى روحه ووعيه هذا الشوق هم أنفسهم لا يعرفون .

صحيح أنهم على يقين بأن قريشاً ليست فى دينها على شىء من حق . وأنها أخطأت دين إبراهيم .

ولكنْ ، ما المنهج الجديد الذى يعود إبراهيم من خلاله بدينه وحقيقته . . ؟

إنهم لا يعرفون . .

لقد مات قسّ بن ساعدة دون أن يعرف .

وَذَانِكَ صاحباه لا يعرفان .

أمّا ورقة ، فإنه عاكف على الأناجيل يتلوها ويَدرسُها عَساها تدلُّه على دين إبراهيم . .

وأما زيد ، فهائم مع أشواقه المؤمنة ، مُنطلق فى بِطاح مكة تارة . . ولائذٌ بالكعبة تارة أخرى . . ومُناجٍ ربه دوْماً :

— « اللهم لو أنى أعلم أىَّ الوجوه أحب إليك لَعبدتُك به ، ولكنى لا أعلمه » . .

إذن هو لا يعلم ، وإن كان قد أعلن الملأ من قريش أنه فارق دينهم . واعتزل الأوثان والأنصاب ، ووأْدَ البنات ، وأجاب حين سُئِل عن ربه الذى يعبده :

« أعبُدُ رَبَّ إبراهيم » . . .

وتزداد الأشواق العارمة إلى الحقيقة ازدحاماً فى رُوح « أبى بكر » فهو بفطرته لا تروى ظمأه أنصافُ الحلول ، لقد اتضحت له مَعالم الأزْمة التى يعانيها الضمير الإنسانى فى قومه . .

وهو الآن يريد جميع الحَل ، وجميع الخلاص . .

أجَلْ هذه هى الأزمة . . الانحراف عن دين إبراهيم إلى وثنية ضالة خاطئة . .

والمَخرج إذن ، هو دين إبراهيم . .

فمن يَدُلُّنا عليه . . ؟ ؟

إن أكداساً من الأساطير والرواسب قد طَمرتْ حقيقة هذا الدين في زِحامها وتلالها . .

وليس أدلّ على هذا ، من أن الذين يعبدون الأصنام هنا – في مكة – يزعمون أنهم أبناء إبراهيم . .

ويَهُود الشام ونَصاراه ، الذين كان يراهم في رحلاته التجارية يزعم كل منهم على ما بينهم من تناقض أنهم أبناء إبراهيم وورثته . . ! !

فمن يأتينا بالحق المُبين . . ؟

مَن يُعيد إلينا إبراهيم ، ويُعيدنا إليه . . ؟ ؟

مَن يدلّنا على الشِّرعة والمنهاج اللذيْنِ نعبد بهما ربنا الحق ، وتقوم بهما حياتنا . . ؟ ؟

وتتوالَى الخاطراتُ الذكية على القلب الذكى ، ويردد أبو بكر قول أمية بن أبى الصَّلْت .

ألاَ نَبيٌّ لنـــا منّـــا فَيخبرنـا ما بعدَ غايتنا من رأس مجرانا
إنى أعوذ بمن حَجَّ الحجيج له والرافعون لدين الله أركانـــا

إن اختلاف الناس فى دينهم يَقُضُّ تفكير أبى بكر

وغياب الحقيقة بينما الناس فى أشد الحاجة إليها ، واللهفة عليها ، أمر يأسَى له أبوبكر مُنتهى الأسى . .

وأنه ليُجيل بصره بين قومه ويتساءل :

أليس فينا من يجمعنا على الحق بعد أن يدلنا عليه . . ؟

وفجأة يومض فى خاطره ذلك المشهد الباهر الذى رآه من قُرابة أعوام خمسة . . .

حين أتمّت قريش تجديد الكعبة ، وهَمُّوا ليعيدوا الحجر الأسود إلى مكانه ، فاشتجَر بينهم خلاف كاد يُغرق قريشاً كلها فى الدم ، وكاد يُنْشِب فيها حرباً أخرى كحرب الفِجار . .

وعاد المشهد كله يَزْحمُ خواطر أبى بكر . .

فها هى ذى بطون قريش جميعاً ، تتحول إلى شِيَعٍ مُتربصة تُقسم كل شيعة ليكونن لها دون سواها شرف رفع الحجر المقدس إلى مكانه .

وإذْ يحتدم الخلاف ويبلغ ذُروته ، يُشير أُمية بن المغيرة أكبر قريش يومئذ سنًّا ، يُشير على الناس أن يُحكِّموا بينهم أول قادم . . ويرتضون حكمه ، ويترقبون مَلِيًّا ، ويحتويهم صمت رهيب ، لا يُسمَعُ خلاله إلا صوت الدم فى الأوردة والعروق . ! !

ويسترسل أبو بكر مع ذكرياته فى حُبور . .

ها هم أولاء قابعون هناك . .

أشراف قريش ، والقبائل كلها . .

وقد سُمِّرتْ أبصارهم شَطر القادم الجديد . . أولِ مُقْبلٍ عليهم . . هذا الذى سيحسم مجيئه خلافهم ، ويَعصم دماءهم .

وفجأةً يسمعون وقع خطوات ، كأنها نداء النجدة . .

وتضطرم الأنفاس . .

ويقترب القادم . .

يقترب المنقذ . .

وإذا هو — « محمد الأمين » . . . ! !

ولا يكادون يبصرونه حتى يَصيحوا فى غبطة :

هذا الأمين « محمد » ، نِعم الحكَم هو . .

ويُتمتم أبو بكر ، والذكرياتُ تَبهر خاطره فيقول لنفسه :

– وكان نِعم الحكَم حقًّا . .

ثم يسترسل فى ذكرياته ، وكأنه يناجى نفسه :

أجل ، كان نِعمَ الحكَم ، ونعم المَلاذُ .

فما كاد يسمع أسباب نزاعهم حتى قال لهم :

– هَلُمُّوا إلىَّ ثوباً . .

فجاءوه بثوب . . وضع الحجر فى وسطه ثم نادى :

– لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً، فاستجابوا لـه حتى اقترب الحجَـر من موضعـه ، فأخـذه محمد بيـده فأرساه مكانه . .

وانتهت أسعدَ نهاية ، فتنةٌ كانت تنذر بشر وبيل . . ! ! !

وعاد أبو بكر يسأل نفسه :

– أوَلَا رجل يجىء ، فيحسم الخلاف مرة أخرى . ويُبيِّن للناس ما اختلفوا فيه من الحق . . ؟ ؟

رجل يرد إلى قريش نُهاها . وتمضى معه إلى عافيتها وهُداها . .

رجل يعطيهم من السلام ، واليقين ، والعقل ، مثلما أعطاهم « محمد » يوم كاد خلافهم حول الحجر الأسود يُفْنيهم فى معركة مجنونة . . ؟ ! !

واستجاشَتِ الذكرى السعيدة كل الابتهالات ، والنبوءات التى طالما سمعها من قس ، وزيد ، وورقة بن نوفل . . والتى كان يحفظها للسابقين من أمثال أمية بن أبى الصلت ، وعامر بن الظرِب ، والمتلمس بن أمية . .

واقترب مشهد فريد . ظل يقترب ويكبُر حتى ملأ الشاشة كلها . .

مشهد قسّ بن ساعدة ، وهو قائم بين الناس مُلَوِّحاً بذراعه المبسوطة فى لأفق كأنها راية ، ويقول :

– يُقسِم قُسٌّ بربه لَيبلُغَنَّ الكتاب أجلَه . .

وودَّع أبو بكر موكب ذكرياته وهو يتمتم فى يقين قائلا :

– صدق ابن ساعدة . .

لَيبلُغن الكتاب أجلَه . . ! !